وتدميراً وإذلالاً وتركيعاً للشعب الفلسطيني، حتى لا يشعر بزهوة النصر على جيشه الهارب قريباً من قطاع غزة.

ولكن مثل هذه الفظائع التي ارتكبها العدو الصهيوني في رفح لم تكن لتمر بسهولة لولا هذا التصريح المفتوح الذي أخذه شارون من الولايات المتحدة الأمريكية الغارقة بدورها في فظائعها في العراق، ففي اللحظة التي أقدمت طائرات العدو الصهيوني بقصف مسيرة للأطفال في رفح وقتل العشرات منهم وإصابة العشرات كانت الطائرات الأمريكية تقصف المدنيين العراقيين في مدينة القائم لتقتل العشرات وتصيب أضعافهم. فكيف ستعارض أمريكا جرائم شارون؟

الأغرب من هذا موقف السلطة الفلسطينية الذي من المفترض أن يضاف إلى رصيد الشعب الفلسطيني، ولكنه بارتهانه إلى ما يسمى بعملية السلام والمفاوضات، وارتهانه إلى الموقف الأمريكي أضاف غطاءً سياسياً لجرائم العدو الصهيوني، فهو تارة يتخذ موقف الحياد ويدعو إلى وقف العنف المتبادل!! وهو مرّة يطالب بإعطائه فرصة لحفظ الأمن وقمع «الإرهاب» الإسلامي!!. وهو مرّة -وفي ظل هذا الإجرام بحق شعب فلسطين- يعدّ نفسه عبر دورات بروتوكولات الرئاسة لمرحلة ما بعد المذبحة والانسحاب!!، وكأنما يريدون بناء ملكهم على جماجم أطفال الشعب الذي لم يروا أنه شعبهم أبداً!!.

وفي هذا الإطار نرى تصريحات مسؤولي السلطة، وهذا الغزل الذي نراه في الأردن بين قريع وباول، وفي برلين بين قريع وكونداليزا رايس، وما ظهر وما بطن من المباحثات والمؤامرات العلنية والسرية.

هكذا استغل العدو الصهيوني كل هذه المعطيات وصنع معركة من طرف واحد للاستهلاك الصهيوني المحلي من أجل الخروج من غزة (مرفوع الرأس)، اختار أرض المعركة وسخّر لها طاقاته التكنولوجية العسكرية الهائلة. فهل حسمت المعركة وانتهى الأمر؟!

الموقف الفلسطيني

للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من استجلاء الموقف الفلسطيني المقاوم.

لو نزلت إلى شوارع المخيمات والأحياء الفلسطينية في غزة، واستوقفت عينة عشوائية من الشباب والأطفال والنساء مثقفين أو غير مثقفين، مقاتلين أو غير مقاتلين ووجهت إليهم سؤالاً بسيطاً: ماذا تبقى لكم بعد هذا الحصار والدمار والإجرام الأمريكي الصهيوني والتآمر العربي والخذلان السلطوي، ونفاد السلاح والذخيرة في مقابل آلة عسكرية هائلة وتقدم تكنولوجي رهيب؟. ماذا تبقى لكم أيها الفلسطينيون؟ فتسجد جواباً تلقائياً وسريعاً: لنا الله!!، وعندها ستجد نفسك تردّ تلقائياً، ونعم بالله، ولكن!!. وبعد «لكن» لن تجد الكثير ممن يقفون معك ليكملوا الجواب لأنهم غير معنيين بالبحث في التفاصيل، فإذا ما ألححت عليهم بالبحث فستجد أكثرهم يجنحون في تحليلهم إلى الخطاب الديني الذي يرتكز إلى ثوابت عقائدية تجعل المسلم أكثر صلابة وقوة، منها حديث الطائفة المؤمنة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، ومنها وعد الله بهزيمة اليهود كما جاء في سورة الأنعام وسورة الإسراء، ومنها ما جاء في سورة الأنفال وآل عمران من إلقاء الرعب في قلوب الكفار، وتنزيل الملائكة للقتال إلى جانب المؤمنين. ومن هؤلاء المحللين من يسرد لك شواهد من تاريخ الحروب الإسلامية التي انتصر فيها المسلمون رغم قلة العدد والعتاد. ومنهم من يسوق لك شواهد من الواقع المعاصر، في فيتنام والصومال ولبنان وأفغانستان.. وغيرها. ومنهم من يشير لك بإصبعه إلى ذلك الشارع وذلك الزقاق الذي حدثت فيه كرامات ومعجزات، ويفيض لك بشرح الانتصارات الإسلامية التي حققتها المقاومة الإسلامية. ومن هذه السوابق يستنتج النتيجة التي مفادها أننا سننتصر ولو بعد حين بقوة الله.

ومع قناعتنا التامة بهذا الخطاب الديني الصادق، فإن هذا لا يمنعنا من توسيع الخطاب إلى أكبر شريحة من الناس عبر إبراز المقومات الحقيقية المادّية على الأرض الفلسطينية ومن هذه المقومات:

أولا: سلاح الرعب، فلم يكتفِ المجاهدون الفلسطينيون بكسر حاجز الرعب الذي فرضه العدو طويلاً على الإنسان الفلسطيني من خلال المذابح الجماعية التي ارتكبها لتهجير الشعب الفلسطيني، بل عمد أبطال المقاومة الإسلامية إلى نقل هذا الرعب إلى عمق الكيان الصهيوني، فأصبح هذا الكيان في حالة دفاع عن النفس، بينما امتلكت المقاومة زمام المبادرة، حيث استطاعت امتصاص ردّات الفعل الصهيونية بصدر مؤمن وحوّلت المآتم إلى أعراس، ورفعت الشهداء مكانة عليا، جعلت كل شاب وكل امرأة وكل طفل يحلم باليوم الذي يصبح فيه شهيداً عالياً بين أهله وعالياً في جنات الفردوس الأعلى. ولعلّ هذا العامل الجديد هو الذي أربك رابين قبل موته حينما تمنى أن يبتلع البحر غزة، ويقول أمام الكنيست: «ماذا أفعل بشخص يريد أن يموت؟!» لقد أصبح العامل البشري الإسلامي من أكثر الأسلحة مضاءً في المعركة مع هذا العدو، الذي بات يحلم بالتخلص من هذا الزحف الديموغرافي (المتطرف) الذي لا يخشى شيئاً.

ثانيا: التفاف المقاومة الفلسطينية حول الشعار الإسلامي والتفاف الجماهير كلها حول المقاومة الإسلامية جرّد السلطة الفلسطينية من قدرتها على احتواء الشعب أو قمع المقاومة، وباتت عاجزة تماماً عن العودة إلى جرائم ١٩٩٦ حينما قيدت أيدي المقاومة الإسلامية لصالح العدو الصهيوني. ومما جعل الأمر أكثر صعوبة قرار المقاومة الإسلامية بعدم تسليم سلاحها، أو الاستسلام لخداع أجهزة الأمن الفلسطينية، التي تعد العدو الصهيوني بقدرتها على قمع المجاهدين. وهكذا خسر العدو الصهيوني الرهان على الحرب الأهلية الداخلية، والتي تعتبر سلاحاً ماضياً في معركته الاستراتيجية مع الشعب الفلسطيني والأمة الإسلامية.

ثالثا: مصداقية المقاومة الإسلامية والتفاف الجماهير حولها ودعمهم المعنوي والمادّي لها قلل من أهمية الحصار الاقتصادي، وتجفيف مصادر التمويل التي يمارسها تحالف العدو الصهيوني الأمريكي مع الأنظمة العربية و(النظام الفلسطيني). ولا أدلّ على ذلك من حملة التبرعات التي قامت بها حركة المقاومة الإسلامية حماس بعد استشهاد الشيخ أحمد ياسين؛ والتي كشفت عن معدن الشعب الفلسطيني الإسلامي الذي يلتف حول خيار المقاومة الإسلامية.

رابعاً: حرب الأدمغة التي يخوضها المقاوم الفلسطيني المؤمن والذي مكنه من ابتداع وسائل قتالية فعّالة من مواد بدائية متوفرة محلياً، هذه الوسائل مكنته من تدمير أقوى التجهيزات العسكرية الصهيونية؛ دبابة (الميركافاه) والتي تعتبر مفخرة الصناعات العسكرية الصهيونية، حيث أدّى ذلك إلى انهيار سمعة الجيش الصهيوني وتجارته العسكرية.

خامساً: الخبرة العسكرية الميدانية التي اكتسبها الفلسطينيون جعلتهم يديرون حرباً طويلة الأمد، عالية الأثر في العدو الصهيوني مع أقل الخسائر الممكنة في ظل التوازنات المختلة عسكرياً؛ معتمدين على حرب الشوارع، والكر والفرّ، ونقل الرعب إلى العمق الصهيوني.

سادساً: يضاف إلى هذه المقومات الذاتية بعض المواقف العربية المساندة شعبياً ورسمياً، كالموقف السوري والموقف اللبناني وموقف حزب الله إضافة إلى موقف التنظيمات الإسلامية المساندة سراً وعلناً، بل قد تجاوز ذلك إلى أن المقاومة بمصداقيتها اكتسبت احترام بعض الأطراف الرسمية العربية والأوروبية، وقد ظهر ذلك واضحاً من الإدانة لاغتيال الشهيدين الشيخ أحمد ياسين والشهيد عبد العزيز الرنتيسي، حتى ولو كانت هذه الإدانة شكلية؛ وكذلك من خلال قرار مجلس الأمن الأخير الذي دان العدوان على رفح، بعد صمت دام سنوات. ورغم عدم أهمية القرار عملياً إلا إنه يشكل اعترافا بالجريمة الصهيونية، وإضفاء للشرعية على المقاومة الإسلامية في فلسطين.

مما سبق من عوامل دينية وسياسية وجماهيرية وعسكرية ميدانية، يبدو واضحاً أن جولة رفح ليست آخر المطاف رغم أن نتائجها مؤلمة على المدى القريب، ولكنها على المدى البعيد ستكون تجربة تضاف إلى رصيد التجارب الجهادية في فلسطين، وحافزاً من حوافز مواصلة القتال والجهاد والردع لهذا العدو الصهيوني حتى يندحر ذليلاً عن كل أرض فلسطين الطاهرة المباركة ■